سبيل النجاة من عقبات الشيطان السبع الموبقات

الدكتور

عبد العزيز بن ريس الريس

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المحتويات

مقدمة المؤلف ١

نص الإمام ابن القيم ٢

بداءة التعليق ٧

عداوة الشيطان لبني آدم ٧

(العقبة الأولى): عقبة الكفر بالله ٨

(العقبة الثانية): عقبة البدعة ٩

- من أسباب النجاة التمسك بالسنة وما عليه السلف ١٠
- الرد على شبهة: أنتم تلزمونا بأفراد أقوال السلف ١٣
- الرد على شبهة: أنتم تريدون أن تجعلوا قول الواحد من السلف كالحديث النبوي ١٤.

(العقبة الثالثة): عقبة الكبائر ١٥

- ضابط الكبيرة ١٥
- سبب تشديد السلف على مرجئة الفقهاء ١٥
- تنبيه على قول ابن تيمية بأن خلاف مرجئة الفقهاء شبه لفظي ١٦
- معنى الإيمان لغةً وشرعًا ١٧
- التساهل في الذنوب بحجة أنه موحد ١٨
- بعض مفاسد البدع العظيمة ١٨

(العقبة الرابعة): عقبة الصغائر ٢٠

- لا كبيرة مع استغفار ولا كبيرة مع إصرار ٢٠
- متى يكون الرجل فاسقًا..... ٢٠
- الأعمال الصالحة لا تكفر الكبائر ٢١
(العقبة الخامسة): عقبة المباحات..... ٢١
- خطورة التوسع في المباحات..... ٢١
- المقربون يتقربون بكل شيء حتى المباحات ٢٢
(العقبة السادسة): عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات..... ٢٣
- حسرة الناس على تفريطهم يوم التغابن..... ٢٣
- العلم الشرعي أفضل الأعمال التطوعية على الإطلاق..... ٢٤
- سبب ضعف بعض الناس في العلوم الشرعية مع سهولتها..... ٢٦
- من الخطأ الاكتفاء بحضور الدروس ٢٦
- العلم لا يكون إلا بالمراجعة والمذاكرة ٢٧
- تنبيه على طريقة المفاضلة بين الأعمال الصالحة..... ٢٨
- انشغال بعض الناس بالأعمال المفضولة عن الفاضلة ٢٨
(العقبة السابعة): عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى بحسب مرتبته ٣٠
- أشد الناس بلاءً الأنبياء فالأمثل فالأمثل..... ٣٠
- ابن تيمية قدوة في الصبر على البلاء..... ٣٢
فهرس المراجع والمصادر..... ٣٥

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإن كلام العلماء الربانيين كنز ثمين، يُستخرج منه الدرر والفوائد، ويُستنبط منه العبر والتوجيهات النافعة، خاصة إذا صدر عن إمام جليل كالإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي ملأ كتبه حكمةً وبصيرةً، ومنها كتابه (مدارج السالكين)، وقد مَنَّ الله عليَّ وألقيت كلمةً في التعليق على جزءٍ من كلامه عن عقبات الشيطان السبع، ثم فُرِّغت هذه الكلمة ووثِّقت نقولاتها ووضع لها فهرسٌ لزيادة الفائدة.

أسأل الله أن ينفع بهذه المادة، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. عبد العزيز بن ريس الريس

المشرف على موقع الإسلام العتيق

https://islamancient.com

١٤ / ٩ / ١٤٤٧هـ

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]:

" ... فإنّه يريد أن يظفر به في عقَبةٍ من سبع عقَباتٍ، بعضُها أصعب من بعضٍ، لا ينزل منه من العقبة الشَّاقَّة إلى ما دونها إلّا إذا عجَز عن الظّفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبةُ الكفر بالله وبدينه ولقائه وصفات كماله وما أخبرت به رسلُه عنه، فإنّه إن ظفِر به في هذه العقَبة بردت نارُ عداوته واستراح معه، فإن اقتحَمَ هذه العقَبةَ، ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلِم معه نورُ الإيمان طلَبه على:

العقبة الثّانية: وهي عقبة البدعة، إمَّا باعتقاد خلافِ الحقِّ الذي أرسل الله به رسولَه وأنزل به كتابَه، وإمّا بالتّعبدِ بما لم يأذن به من الأوضاع والرُّسوم المحدثة في الدِّين التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفكَّ إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوّجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزَّوجان بالعُرس، فلم يفجَأهم إلّا أولادُ الزِّنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تزوّجت الحقيقةُ الكافرةُ بالبدعة الفاجرة، فوُلد بينهما خسرانُ الدُّنيا والآخرة.

فإن قطع العبدُ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السُّنَّة، واعتصَم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السّلفُ الأخيارُ من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسانٍ، وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخِّرةُ بواحدٍ من هذا الضّرب! فإن سمحَتْ به

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٤٧) وما بعدها.

نصَب له أهلُ البدع الحبائلَ، وبغَوه الغوائلَ، وقالوا: مبتدعٌ مُحْدِثٌ= فإذا وفَّقه الله لقطع هذه العقبة طلبَه على:

العقبة الثَّالثة: وهي عقبةُ الكبائر، فإن ظفِر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّفَ به وفتَح له بابَ الإرجاء وأنَّ الإيمانَ هو نفسُ التّصديق فلا تقدَح فيه الأعمالُ. وربَّما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلَكَ بها الخلقَ: لا يضرُّ مع التّوحيد ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشِّرك حسنةٌ!

والظفرُ به في عقَبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضِتها الدِّين ودفعِها لما بعث الله به رسولَه، وصاحبُها لا يتوب منها، ويدعو الخلقَ إليها؛ ولتضمُّنها القولَ على الله بلا علمٍ، ومعاداةَ صريح السُّنّة، ومعاداةَ أهلها، والاجتهادَ على إطفاء نور السُّنّة، وتوليةَ مَن عزَلَه الله ورسوله وعَزْلَ من ولّاه، واعتبارَ ما ردَّه الله ورسوله وردَّ ما اعتبره، وموالاةَ من عاداه ومعاداةَ من والاه، وإثباتَ ما نفاه ونفيَ ما أثبته، وتكذيبَ الصّادق وتصديقَ الكاذب، ومعارضةَ الحقِّ بالباطل، وقلبَ الحقائق بجعل الحقِّ باطلًا، والباطلِ حقًّا، والإلحادَ في دين الله، وتعميةَ الحقِّ على القلوب، وطلبَ العوج لصراط الله المستقيم، وفتحَ باب تبديل الدِّين جملةً؛ فإنَّ البدعَ تَسْتدرجُ بصغيرها إلى كبيرها، حتّى ينسلخَ صاحبُها من الدِّين، كما تنسَلُّ الشَّعرةُ من العجين، فمفاسدُ البدع لا يقف عليها إلّا أربابُ البصائر، والعميانُ في ظلمة العَمى {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ} [النور: ٤٠].

فإن قطَع هذه العقَبةَ بعصمةٍ من الله، أو بتوبةٍ نصوحٍ تُنجيه، طَلَبه على:

العقبة الرَّابعة: وهي عقبة الصّغائر. فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائرَ ما غشِيتَ من اللَّمَم. أَوَما علمتَ بأنَّها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهوِّن عليه أمرَها حتّى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكبُ الكبيرة الخائفُ الوَجِلُ النَّادمُ أحسنَ حالًا منه؛ فإنَّ الإصرارَ على الذّنب أقبَحُ منه، ولا كبيرةَ مع التَّوبة والاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار. وقد قال ﷺ: "إيَّاكم ومحقَّراتِ الذُّنوب"، ثمَّ ضرَب لذلك مثلًا بقومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض، فأعوَزَهم الحطبُ، فجعل يجيء هذا بعُودٍ، وهذا بعُودٍ، حتّى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوه نارًا. فكذلك شأنُ محقَّراتِ الذُّنوب تجتمع على العبد، ويستهين بشأنها حتَّى تُهلِكه.

فإن نجا من هذه العَقبة بالتحرُّز والتحفُّظ، ودوام التَّوبة والاستغفار، وإتباعِ السَّيئةِ الحسنةَ= طلَبَه على:

العقبة الخامسة: وهي عقَبةُ المباحات التي لا حرج على فاعلها. فشغَلَه بها عن الاستكثار من الطّاعات، وعن الاجتهاد في التّزوُّد لمعاده، ثمَّ طمِع فيه أن يستدرجه منها إلى تركِ السُّنن، ثمّ من تركِ السُّنن إلى ترك الواجبات. وأقلُّ ما ينال منه تفويتُه الأرباحَ العظيمةَ والمنازلَ العاليةَ، ولو عرَفَ السِّعَر لما فوَّت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنّه جاهلٌ بالسِّعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرةٍ تامّةٍ ونورٍ هادٍ، ومعرفةٍ بقدر الطَّاعات والاستكثار منها، وقلَّةِ المقام على الميناء، وخطَرِ التِّجارة، وكرمِ المشتري، وقدرِ ما يعوِّض به التُّجّارَ، فبخِلَ بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربحٍ= طلَبه العدوُّ على:

العقبة السّادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطّاعات. فأمرَه بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والرِّبح ليشغله بها عمّا هو

أفضل منها وأعظم ربحًا، لأنّه لمّا عجَز عن تخسيره أصلَ الثّواب طمِعَ في تخسيره كمالَه وفضلَه ودرجاتِه العاليةَ، فشغَلَه بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الرَّاجح، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه، وبالمرضيِّ عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العَقَبة! فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقَبات الأُوَل.

فإن نجا منها بفقهٍ في الأعمال ومراتبها عند الله تعالى، ومنازِلِها في الفضل، ومعرفةِ مقاديرها، والتَّمييزِ بين عاليها وسافِلِها، ومفضولِها وفاضِلِها، ورئيسِها ومرؤوسها، وسيِّدِها ومسودها؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروةً وما دونها، كما في الحديث الصّحيح: "سيِّد الاستغفار أن يقول العبد: اللهمَّ أنتَ ربِّي" الحديث، وفي الحديث الآخر: "الجهادُ ذِروةُ سَنامِ الأمر"، وفي أثرٍ آخر: أنّ الأعمال تفاخرت، فذكر كلُّ عملٍ منها مرتبته وفضله، وكان للصَّدَقة مزيّةٌ في الفخر عليهنّ.

ولا يقطع هذه العقبةَ إلّا أهلُ البصائر والصِّدق من أولي العلم.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقَبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوى واحدةٍ لا بدَّ له منها، ولو نجا منها أحدٌ لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلق عليه. وهي عقَبةُ تسليطِ جندِه عليه بأنواع الأذى باليد واللِّسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلَّما علَتْ مرتبتُه أجلَبَ عليه بخيله ورَجْله، وظاهَرَ عليه بجنده، وسلَّطَ عليه حزبَه وأهلَه بأنواع التَّسليط. وهذه العقَبةُ لا حيلة له في التّخلُّص منها، فإنّه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدَّعوة إلى الله تعالى والقيام بأمره، جدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء به، فهو في هذه

العقبة قد لبِس لَأْمةَ الحرب، وأخذ في محاربة العدوِّ لله وبالله. فعبوديّتُه فيها عبوديّةُ خواصِّ العارفين، وهي تسمّى "عبوديّة المراغمة"، ولا ينتبه لها إلّا أولو البصائر التّامَّة. ولا شيءَ أحبُّ إلى الله من مراغمةِ وليِّه لعدوِّه وإغاظتِه له.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذه العبوديّة في مواضع من كتابه. أحدها: قوله: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء: ١٠٠]. سمَّى المهاجَرَ الذي يهاجَر فيه إلى عبادة الله "مراغَمًا" لأنه يُراغَم به عدوُّ الله وعدوُّه، والله يحبُّ من وليِّه مراغمةَ عدوِّه وإغاظته، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩] فمغايظةُ الكفّار غايةٌ محبوبةٌ للرّبِّ مطلوبةٌ له، فموافقته فيها من كمال العبوديّة.

وشرع النبيُّ ﷺ للمصلِّي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: "إن كانت صلاتُه تامّةً كانتا ترغيمًا للشّيطان". وسمَّاهما "المُرْغِمَتين".

فمن تعبَّد لله بمراغمة عدوِّه، فقد أخذ من الصِّدِّيقيّة بسهمٍ وافرٍ. وعلى قدر محبّة العبد لربِّه وموالاته ومعاداةِ عدوِّه يكون نصيبُه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حُمِد التَّبختُرُ بين الصَّفَّين، والخيلاءُ والتَّبختُرُ عند صدقة السِّرِّ حيث لا يراه إلّا الله تعالى؛ لما في ذلك من إرغام العدوِّ ببذل محبوبه من نفسه وماله لله. وهذا بابٌ من العبوديّة، ولا يعرفُه ويسلكُه إلّا القليلُ من النّاس. ومن ذاق لذَّتَه وطعمَه بكى على أيّامه الأُوَل. وبالله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وصاحبُ هذا المقام إذا نظر إلى الشَّيطان، ولاحظَه في الذَّنب، راغَمَه بالتَّوبة النَّصوح، فأحدثت له هذه المراغمةُ عبوديّةً أخرى.

فهذه نبذةٌ من بعض لطائف أسرار التّوبة، لا تَسْتَهِنْ بها، فلعلّك لا تظفر بها في مصنّفٍ البتّة. ولله الحمد والمنَّة، وبه التَّوفيق ".

-التعليق-

هذه كلمات للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسطر، تحدث فيها عن العقبات التي يضعها الشيطان لابن آدم، وإن الشيطان يجتهد على أن يحصل على العقبة الأولى وهي الكبرى، فإذا لم يتيسر انتقل إلى العقبة الثانية، وهي عقبات من حيل الشيطان ومكره.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن عداوة الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] فهذا عدونا لم تقف عداوته هو وذريته، بل سلَّط علينا أعداءً من الإنس، قال الله عز وجل: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقد أشار لهذا ابن القيم فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسانَ بعدوّ لا يفارقه طرفةَ عين. ينام، ولا ينام عنه. ويغفل، ولا يغفل عنه. يراه هو وقبيلُه من حيث لا يراه. يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجنّ وغيرهم من شياطين الإنس. قد نصب له الحبائل، وبغاه الغوائل، ومدّ حوله الأشراك، ونصب له الفِخاخ والشِّباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوَّكم وعدوَّ أبيكم، لا يفوتنّكم، ولا يكنْ حظُّه الجنةَ وحظُّكم النارَ، ونصيبُه الرحمة ونصيبُكم اللعنة! وقد علمتم أنّ ما جرى عليّ

وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله فبسببه ومن أجله. فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ قد فاتنا شركةُ صالحيهم في الجنّة. وقد أعلَمَنا سبحانه بذلك كلّه من عدوّنا، وأمَرَنا أن نأخذ له أهبته، ونعدّ له عدّته" [(١)].

وحتى تستشعر أهمية معرفة هذه العقبات استحضر أنك مخاطب بها، ومن المهم أن تُشاع وتُذاع وتُنشر بين الناس حتى يفهموها، فهي عقبات لكل بني آدم وليست خاصةً بالعلماء وطلاب العلم ولا العامة دون العلماء وطلبة العلم، بل للجميع، وقد تكثر بعض هذه العقبات عند العلماء وطلبة العلم دون غيرهم.

والتعليق على هذه العقبات يطول، لذا سأذكر بعض الإشارات مع إبراز كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والعمل والصالح وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

قوله: (فإنّه يريد أن يظفر به في عقَبةٍ من سبع عقَباتٍ، بعضُها أصعب من بعضٍ، لا ينزل منه من العقبة الشَّاقَّة إلى ما دونها إلّا إذا عجَز عن الظّفر به فيها. العقبة الأولى: عقبةُ الكفر بالله وبدينه ...) فالشيطان حريص على أشد العقبات ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأنه عدو، وهذا مقتضى ما أقسم به كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين.

قوله: (العقبة الأولى: عقبةُ الكفر بالله وبدينه ولقائه وصفات كماله وما أخبرت به رسلُه عنه، فإنّه إن ظفِر به في هذه العقَبة بردت نارُ عداوته واستراح معه،

(١) الداء والدواء (ص ٢٢٥).

فإن اقتحَمَ هذه العقَبةَ، ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلِم معه نورُ الإيمان طلَبه على: العقبة الثّانية: وهي عقبة البدعة) فأعظم العقبات عند الشيطان أن يُخرج بني آدم من الإسلام إلى الكفر، أو أن يبقيه على الكفر، لأن الكفر والإسلام نقيضان وضدان لا يجتمعان، فإن كفر ذهب إسلامه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

قوله: **(العقبة الثّانية: وهي عقبة البدعة، إمَّا باعتقاد خلافِ الحقِّ الذي أرسل الله به رسولَه وأنزل به كتابَه، وإمّا بالتّعبدِ بما لم يأذن به من الأوضاع والرُّسوم المحدثة في الدِّين التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفكَّ إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوّجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزَّوجان بالعُرس، فلم يفجَأهم إلّا أولادُ الزِّنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى)**.

قوله: **(والبدعتان)** وهي البدع العقدية والعملية، فإذا لم يظفر بالكفر حاول إيقاعه في البدع والإحداث في الدين؛ لأن البدع أشد إثمًا من المعاصي الشهوانية، وقد حكى شيخ الإسلام كما في (مجموع الفتاوى)[1] الإجماع على ذلك.

والبدعة إما أن تكون في الاعتقاد أو في العمل، وقد يُعبَّر عنها بالقول والفعل.

وقوله: **(بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال)** المراد بالأقوال: الاعتقاد، لذلك السلف يقولون: الإيمان قولٌ وعمل، ويريدون بالقول الاعتقاد؛ لأن الأصل في

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٠٣).

القول أن يكون مطابقًا للاعتقاد كما ذكر ابن تيمية[١]، فإذا عبَّروا بالقول تجاه العمل فقد يُحمل القول على الاعتقاد.

قوله: (**وقال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تزوّجت الحقيقةُ الكافرةُ بالبدعة الفاجرة، فوُلد بينهما خسرانُ الدُّنيا والآخرة**) يريد بقوله: (**شيخنا**) شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله: (**فإن قطع العبدُ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السُّنَّة، واعتصَم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السّلفُ الأخيارُ من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسانٍ، وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخِّرةُ بواحدٍ من هذا الضّرب! فإن سمحَتْ به نصَب له أهلُ البدع الحبائلَ، وبغَوه الغوائلَ، وقالوا: مبتدعٌ مُحْدِثٌ= فإذا وفَّقه الله لقطع هذه العقبة طلبَه على**).

فمن أسباب النجاة التمسك بالسنة، ويراد بالسنة هنا ما يقابل البدعة، فللسنة إطلاقات منها ما يقابل البدعة، وهذا عند علماء الاعتقاد، ومنها السنة التي تقابل دليل القرآن، وهذا عند الفقهاء، ومنها السنة التي تقابل الواجب، وهذا عند الأصوليين، ومن إطلاقات السنة عند المحدثين: أقوال النبي ﷺ وأعماله وأفعاله وتقريراته وصفاته الخَلقية والخُلقية.

فيريد ابن القيم بالسنة هنا ما يقابل البدعة، كما جاء في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي رواه الخمسة إلا النسائي، قال ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٠٥).

فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ» (١).

قوله: (فإن قطع العبدُ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السُّنَّة، واعتصَم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السّلفُ الأخيارُ من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسانٍ، وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخِّرةُ بواحدٍ من هذا الضّرب! فإن سمحَتْ به نصَب له أهلُ البدع الحبائلَ ...) وهذا من باب الغالب؛ لأنه عاش عصره ورأى من قبلهم، فالسلفيون وأنصار التوحيد والسنة قِلَّة، حتى قال ابن القيم: (وهيهات) وهذا لقلتهم، وهذا يؤكد حديث أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي ﷺ قال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» (٢).

ولا يريد ابن القيم بكلامه النفي وإنما الغالب؛ وذلك أنه هو وشيخه من أئمة السنة وهم في الأزمان المتأخرة.

قوله: (... إن سمحَتْ به نصَب له أهلُ البدع الحبائلَ، وبغَوه الغوائلَ، وقالوا: مبتدعٌ مُحْدِثٌ) أي قام عليه أهل البدع وصدوا الناس عنه ونفَّروهم منه ووصفوه بالإحداث، قال ابن القيم: **"فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب السِّتِّ وأعيا عليه سَلَّطَ عليه حزبَهُ من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير له والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه ليُشَوِّشَ عليه قلبَهُ ويشغل بحربه فكره،**

---

(١) «مسند أحمد» (٢٨/ ٣٧٥) رقم: (١٧١٤٥)، و«سنن أبي داود» (٧/ ١٦) رقم: (٤٦٠٧)، «سنن الترمذي» (٤/ ٤٠٨) رقم: (٢٦٧٦)، وسنن ابن ماجه (ص٥٧) رقم (٤٢).

(٢) صحيح مسلم (١ / ١٣٠) رقم: (١٤٥)، (١٤٦).

وليمنعَ الناسَ من الانتفاع به، فِيبقى سعْيُهُ في تسليط المُبْطِلينَ من شياطين الإنس والجن عليه، لا يَفْتُرُ ولا بَنِي، فحينئذٍ يلبَسُ المؤمن لأُمَةَ الحرب ولا يضعُها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِرَ أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله" (١).

وتأمَّل ما ذكره ابن القيم في كلامه السابق في أن النجاة من هذه العقبة بالتمسك بالسنة وما عليه السلف الصالح، وهذا هو صمام الأمان لحفظ الدين والاعتقاد، لذا قال الله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] وأول من يدخل في سبيل المؤمنين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال ابن كثير: **"وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذموما مدحورا عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهم الظاهرون إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»"** (٢).

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٨٠٢).

(٢) البداية والنهاية (٨ / ٥٥٥).

وهاهنا شبهة يثيرها أهل البدع ومن تبعهم من الحركيين، وهو أنهم يقولون: كيف تلزموننا بالرجوع إلى أفعال السلف وأنتم ليس عندكم إلا نقلٌ عن أفراد، فكيف جعلتم هؤلاء الأفراد حجة تفهمون الكتاب والسنة بهم؟

والجواب: أن الله لمَّا أمرنا أن نرجع إلى فهم السلف فلابد أنه ميسور، وإلا لا يُحيلنا لأمر تحصل به النجاة وهو متعسر أو ممتنع، ومعرفة منهج السلف يحصل بمعرفة ما نُقل عنهم، فقد يُنقل عن واحد منهم أو اثنين أو عشرة قول ولا يعرف له مخالف فهو قول السلف لا يجوز تركه فإذا تبين أن له مخالفًا فيكون لهم قولان لا يجوز الخروج عنهما، وكلما كان النقل عن أكثر صارت غلبة الظن به أقوى.

ومن لطيف ما ذكر ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) [١] أن القول المرجوح منكرٌ من وجه، ولا يمكن أن ينقل الله للأمة القول المرجوح دون القول الراجح ونحن قد أُمرنا باتباع السلف، والله تعالى يقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ومقتضى هذا لو قال أحدهم قولًا مرجوحًا فلابد أن هناك من يُنكر عليه.

قال ابن قدامة: **"ولا سبيل إلى وجود إجماع أقوى من هذا وشبهه، إذ لا سبيل إلى نقل قول جميع الصحابة في مسألة، ولا إلى نقل قول العشرة، ولا يوجد الإجماع إلا القول المنتشر"** [٢] وقال: **"وهذا القول يرجع إلى إبطال الإجماع؛ إذ**

---

(١) أعلام الموقعين (٤ / ٥٩٦).

(٢) «المغني» لابن قدامة (٤/ ١٩٣).

لا يتصور قول الأمة كلهم في حادثة واحدة. وإن تصوّر: فمن الذي ينقل قول جميعهم، مع كثرتهم وتفرقهم في البوادي والأمصار والقرى؟!" [١].

ثم من جهة اللازم: لا يستطيع أحد أن ينقل وجوب الصلاة أو الزكاة أو الحج عن أهل بدر، لكن قد يُنقله عن عشرة أو أكثر أو أقل، وأعداد الصحابة بالآلاف، فلمعترضٍ أن يقول: إذن لمَّا لم تستطيعوا النقل عنهم جميعًا فلا يكون هذا القول قول السلف، وهكذا يقال في الاعتقاد!

فهذا اللازم خطير، فلابد أن يُقطع الطريق على من أراد أن يُفسد، وكثير من الحركيين والسروريين الجدد يريدون أن ينجو من خناق الاحتجاج بآثار السلف عليهم، ولم ينظروا إلى اللوازم الخطيرة، فما يذكرونه في الرد على السلفيين في احتجاجهم بآثار السلف قد يذكره أشعريٌّ في عدم قبول ما يزعمونه فهم السلف في الاعتقاد.

وبعضهم يعترض ويقول: تريدني أن أجعل قول الواحد والاثنين من السلف حجة كالحديث النبوي؟

وهذه مماحكة من حيث يدري أو لا يدري؛ وذلك أن قول الواحد والاثنين ليس حجةً لذاته وإنما لِما انضافَ إليه وهو عدم المخالف، كما ذكره ابن القيم [٢]، فهو حجة لدلالة النصوص الشرعية على حجية الإجماع، فإذا اختلف السلف على قولين لم يكن قول أحدهم حجة على الآخر، بخلاف النص الشرعي فهو حجة لذاته.

---

(١) «روضة الناظر وجنة المناظر» (١/ ٣٩١)، (١/ ٤٣٧).

(٢) أعلام الموقعين (٤/ ٦٣٥).

وقد حاول المتكلمون كالغزالي[١] وغيره أن يُسقطوا حجية قول الصحابة بمثل هذا، وكذلك الظاهرية كابن حزم[٢]، فلابد أن يُضبط هذا الأمر.

قوله: (**العقبة الثَّالثة: وهي عقبةُ الكبائر ...**) قد كثُر الكلام في ضابط الكبيرة، وضابطها: كل ما كان فيه حد، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنها أحد الحدّين في الدنيا والآخرة، وذكر ابن تيمية الأثر عن ابن عباس [٣]، وهذا الأثر وإن كان ضعيفًا لكن يدل على صحته الأوجه التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ومنها قوله إن هذا هو المنقول عن السلف[٤]، فلا تتميز الكبيرة عن غيرها إلا بأن يكون فيها وعيد أو حد في الدنيا أو الآخرة.

قوله: (**فإن ظفِر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّفَ به وفتَح له بابَ الإرجاء وأنَّ الإيمانَ هو نفسُ التّصديق فلا تقدَح فيه الأعمالُ. وربَّما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلَكَ بها الخلقَ: لا يضرُّ مع التّوحيد ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشِّرك حسنةٌ!**) فيجعله على مذهب المرجئة وهو أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، وأن إيمانه كامل، وقد شدد السلف على مرجئة الفقهاء كما أفاد ابن تيمية [٥]؛ وذلك لسببين:

---

(١) «المستصفى» (ص١٦٨).

(٢) «الإحكام في أصول الأحكام – لابن حزم» (٦/ ٧٥) وما بعدها.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥٤).

(٥) الإيمان الأوسط (ص ٣٧٣).

السبب الأول: أن القائلين بهذا علماء وفقهاء، فاغترَّ بهم عامة المسلمين فتساهلوا في الذنوب والمعاصي، فالزاني والسارق كالمؤمن التقي، فكلهم إيمانهم كامل.

السبب الثاني: أنهم خالفوا نصوص الشريعة، فقد جعلت الشريعة العاصي صاحب الكبيرة ناقص الإيمان، وهم جعلوه كامل الإيمان.

وما عبَّر به ابن تيمية في مواضع من كتبه [١] أن خلاف مرجئة الفقهاء مع أهل السنة خلافٌ لفظيٌّ أو شبه لفظي، قد بيَّن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٢] سبب ذلك وهو أنهم من حيث المآل شيء واحد، فمرجئة الفقهاء يرون أن من زنا في الدنيا يُعذب في الآخرة بالنار، فهم في أحكام الآخرة لا يُنازعون وإنما نزاعهم في أحكام الدنيا، من أجل ذلك عبَّر ابن تيمية بأنه خلاف لفظي أو شبه لفظي، ومع ذلك يشدد السلف عليهم في أحكام الدنيا للأسباب السابقة، وذكر ابن تيمية أن السلف على تبديعهم وتضليلهم لكن لم يعلم أحدًا كفرهم [٣]، حتى روى ابن سعد بإسناد صحيح عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: " **والله إنهم أبغضُ إليَّ من أهل الكتاب** " [٤]؛ لأنهم يفسدون في الدين أكثر.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩٧ و٣٩٤) وهي من الايمان الكبير، والإيمان (ص ١٤٥)، وشرح العقيدة الأصفهانية (ص ١٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩٧)، الإيمان لابن تيمية (ص٣٠٨): وانظر: مجموع الفتاوى (٧ / ٣٩٤)، (١٣/ ٣٨)، وشرح العقيدة الأصفهانية (ص ١٩٧).

(٣) «الإيمان الأوسط» (ص٣٧٣).

(٤) «الطبقات الكبير» (٨/ ٣٩٢).

وقد أفاد ابن تيمية أنه إذا أُطلق المرجئة فيراد مرجئة الفقهاء الذين يقولون: الإيمان قول واعتقاد، ولا يجعلون الأعمال من الإيمان، وإذا أرادوا الجهمية فيعبرون بالجهمية [١].

فمرجئة الفقهاء لم ينازعوا في أحكام الآخرة وإنما نازعوا في الأسماء وفي أحكام الدنيا، فشدد عليهم السلف هذا التشديد، فقولهم: إن الإيمان يكفي فيه التصديق، ولا يضره ترك واجب أو فعل معصية.

وقد نازع ابن تيمية في تعريف الإيمان بالتصديق[٢]، لكن حكى الأزهري في (تهذيب اللغة) [٣] إجماع أهل اللغة على ذلك، وذكر الإيمان عرضًا بمعنى التصديق الآجري في (الشريعة) [٤] وابن بطة في (الإبانة الكبرى) [٥] وغير واحد من السلف، وإجماع أهل كل فن حجة كما ذكره ابن تيمية [٦] وابن القيم [٧]، وذكر أبو حاتم الرازي أن إجماع أهل الحديث في الحديث حجة [٨]، فإجماع أهل اللغة مقدم على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلا أن هذا معناه في اللغة لا في الشرع،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٢٣) وما بعده.

(٣) تهذيب اللغة (١٥ / ٣٦٨).

(٤) الشريعة للآجري (٢ / ٦١١ – ٦١٢).

(٥) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٦٢٨)، (٧/ ٩١).

(٦) مجموع الفتاوى (١٨ / ٤٩، ٥١)، ومنهاج السنة النبوية (٨ / ٤١٨، ٤١٩).

(٧) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٥٦٣).

(٨) المراسيل لابن أبي حاتم (ص ١٩٢) رقم: (٧٠٣).

ففي الشرع لابد من قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الكفر قد يكون بالقول وحده أو بالاعتقاد وحده أو بالعمل وحده.

قوله: (وربَّما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلَكَ بها الخلقَ: لا يضرُّ مع التّوحيد ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشِّرك حسنةٌ!) وهذه مشكلة، وقد ذكر ابن الجوزي [١] أن بعض أهل التوحيد يتساهل في الذنوب والمعاصي بحجة أنه موحد، ولا شك أن التوحيد نعمة عظيمة لكن دخلت النار امرأة في هرة، وهي من الموحدين وليست من المشركين، فالأمر ليس سهلًا، فإياك واحتقار الذنوب، روى البيهقي في (شعب الإيمان) عن بلال بن سعد أنه قال: " **لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت** " [٢]، وفي البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: " **إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا نعد على عهد النبي ﷺ الموبقات** " [٣].

قوله: (والظفرُ به في عقَبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضِتها الدِّين ودفعِها لما بعث الله به رسولَه، وصاحبُها لا يتوب منها، ويدعو الخلقَ إليها؛ ولتضمُّنها القولَ على الله بلا علمٍ، ومعاداةَ صريح السُّنّة، ومعاداةَ أهلها، والاجتهادَ على إطفاء نور السُّنّة، وتوليةَ مَن عزَلَه الله ورسوله وعَزْلَ من ولّاه، واعتبارَ ما ردَّه الله ورسوله وردَّ ما اعتبره، وموالاةَ من عاداه ومعاداةَ من والاه، وإثباتَ ما نفاه ونفيَ ما أثبته، وتكذيبَ الصّادق وتصديقَ الكاذب، ومعارضةَ الحقِّ بالباطل، وقلبَ الحقائق بجعل الحقِّ

---

(١) «تلبيس ابليس» (ص٨٩١).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٩ / ٣٥٢) رقم: (٦٧٥٩).

(٣) البخاري (٨ / ١٠٣) رقم: (٦٤٩٢).

باطلًا، والباطلِ حقًّا، والإلحادَ في دين الله، وتعميةَ الحقِّ على القلوب، وطلبَ العوج لصراط الله المستقيم، وفتحَ باب تبديل الدِّين جملةً؛ فإنَّ البدعَ تَسْتدرجُ بصغيرها إلى كبيرها، حتّى ينسلخَ صاحبُها من الدِّين، كما تنسَلُّ الشَّعرةُ من العجين، فمفاسدُ البدع لا يقف عليها إلّا أربابُ البصائر، والعميانُ في ظلمة العَمى {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ} [النور: ٤٠]).

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفاسد البدع العظيمة، وكأنه يقول: هذه بعض أسباب شناعة البدعة من أنها منسوبة للدين لذلك صعبت التوبة منها، وأنها تبديل للشريعة، وغير ذلك من المعاني، وهذا مقتضى ما روى اللالكائي عن سفيان الثوري أنه قال: **"البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها "** [(١)]، قال ابن تيمية: لأن صاحب البدعة يظن نفسه على خير بخلاف صاحب المعصية [(٢)].

فيصر المبتدع على بدعته وكلما خُوف بالنار وذُكر بالجنة ازداد تمسكًا ببدعته، أما صاحب المعصية فيقلع، فشتان بينهما، فالبدع خطيرة، وجاء في بعض الآثار - وروي مرفوعًا ولا يصح- **" قال إبليس لأوليائه: من أي شيء تأتون بنى آدم؟ فقالوا: من كل شيء، قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ فقالوا: هيهات ذاك شيء قرن بالتوحيد، قال: لأبثن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه. قال: فبث فيهم الأهواء "** [(٣)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١ / ١٤٩) رقم: (٢٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٩).

(٣) مسند الدارمي (١ / ٣٤٤) رقم: (٣١٦).

قوله: (العقبة الرَّابعة: وهي عقبة الصّغائر. فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائرَ ما غشِيتَ من اللَّمَم. أَوَما علمتَ بأنَّها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهوِّن عليه أمرَها حتّى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكبُ الكبيرة الخائفُ الوَجِلُ النَّادمُ أحسنَ حالًا منه؛ فإنَّ الإصرارَ على الذّنب أقبَحُ منه، ولا كبيرةَ مع التَّوبة والاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار. وقد قال ﷺ: "إيَّاكم ومحقَّراتِ الذُّنوب"، ثمَّ ضرَب لذلك مثلًا بقومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض، فأعوَزَهم الحطبُ، فجعل يجيء هذا بعُودٍ، وهذا بعُودٍ، حتّى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوه نارًا. فكذلك شأنُ محقَّراتِ الذُّنوب تجتمع على العبد، ويستهين بشأنها حتَّى تُهلِكه ...).

ثبت عند ابن جرير في تفسيره والبيهقي في (شعب الإيمان) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: " **لا كبيرةَ مع استغفارٍ، ولا صغيرةَ مع إصرارٍ** "[(١)]، فالإصرار على الصغائر يجعلها كبائر.

ويكون الرجل فاسقًا عند أهل السنة بارتكاب الكبيرة بلا توبة، ومن أصرَّ على الصغيرة فحكمه حكم صاحب الكبيرة، ذكر هذا السفاريني[(٢)]، وقد أشار ابن تيمية في (العقيدة الواسطية)[(٣)] أن الوقوع في الكبائر سبب للفسق، فالتفسيق عند أهل السنة بالوقوع في الكبائر.

---

(١) تفسير الطبري (٦ / ٦٥١)، وشعب الإيمان للبيهقي (٩ / ٤٠٦) رقم: (٦٨٨٢).

(٢) لوامع الأنوار (١ / ٣٦٦).

(٣) متن العقيدة الواسطية (ص ١١٤).

وتأمل دقة ابن القيم فلم يذكر عند كلامه عن الكبائر أنها تذهب بالحسنات، وذلك أن الحسنات لا تُكفِّر الكبائر، وإنما يُكفرها التوبة أو فضل الله وعفوه ومغفرته يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ويؤكد ذلك ما ثبت في مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» [(١)]، فإذا كانت الصلوات الخمس لا تُكفِّر فغيرها أولى وقد حكى الإجماع على ذلك ابن بطال في شرحه على البخاري [(٢)]، وابن عبد البر [(٣)].

قوله: (**العقبة الخامسة: وهي عقَبةُ المباحات التي لا حرج على فاعلها. فشغَلَه بها عن الاستكثار من الطّاعات، وعن الاجتهاد في التّزوُّد لمعاده، ثمَّ طمِع فيه أن يستدرجه منها إلى تركِ السُّنن، ثمّ من تركِ السُّنن إلى ترك الواجبات. وأقلُّ ما ينال منه تفويتُه الأرباحَ العظيمةَ والمنازلَ العاليةَ، ولو عرَفَ السِّعَر لما فوَّت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنّه جاهلٌ بالسِّعر**).

والتوسع في المباحات مما ابتُلينا به كثيرًا، وإن لم يكن إثمًا لكن فيه تفويت خير، ويوم القيامة هو يوم التغابن، وبقدر توسعك في المباحات تُغبن بتفويت الخير العظيم، فراجع نفسك، وهذه العقبة يفرح بها الشيطان.

---

(١) مسلم (١ / ١٤٤) رقم: (٢٣٣).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢ / ١٥٥).

(٣) التمهيد (٤ / ٤٤ – ٤٥).

وقد أفاد ابن تيمية في كتابه (الفرقان) [١] وغيره أن المقربين هم الذين يتقربون إلى الله بكل شيء حتى المباحات، بخلاف أصحاب اليمين فتقربوا بالواجبات والمستحبات فحسب، أو اقتصروا على الواجبات وتركوا المحرمات، فأولياء الله قسمان:

القسم الأول -**وهو الأعلى**-: الذي يفعل الواجبات ويترك المحرمات ويفعل المستحبات ويترك المكروهات.

القسم الثاني: الذي يقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] والظالم لنفسه ليس من أولياء الله، والمقتصد هو القسم الثاني الذي اقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات، والسابق بالخيرات هو الأرفع، وهو الذي يتقرب حتى بالمباح، قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي"** [٢]، فحتى النوم يحتسبونه.

فكل مباح يفعله السابقون يحتسبونه، كالأكل والشرب ومجالسة الأصحاب، أو فعل المباح للتنشيط على الطاعة، وهذا باب واسع.

فتوسع كثير من أهل الخير في المباحات غلط كبير فيزدحم بعض الفضلاء على طعام أو شراب وتذهب عليهم الساعات وهم يتسابقون عليها، أو على متابعة

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ٣٤).

(٢) البخاري (٥ / ١٦١) رقم: (٤٣٤١).

كرة القدم -وأصلها مباح لولا ما يترتب عليها- ثم تزل بهم الأقدام، فلابد أن تكون حذرًا، فتنجو من هذه العقبة حتى لا تزل قدمك فيما هو بعدها.

قوله: (فإن نجا من هذه العقبة ببصيرةٍ تامّةٍ ونورٍ هادٍ، ومعرفةٍ بقدر الطَّاعات والاستكثار منها، وقلَّةِ المقام على الميناء، وخطَرِ التِّجارة، وكرمِ المشتري، وقدرِ ما يعوِّض به التُّجّارَ، فبخِلَ بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربحٍ = طلَبه العدوُّ على:

العقبة السّادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطّاعات. فأمرَه بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والرِّبح ليشغله بها عمّا هو أفضل منها وأعظم ربحًا، لأنّه لمّا عجَز عن تخسيره أصلَ الثّواب طمِعَ في تخسيره كمالَه وفضلَه ودرجاتِه العاليةَ، فشغَلَه بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الرَّاجح، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه، وبالمرضيِّ عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العَقَبة! فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقَبات الأُوَل).

هذا كلام عظيم، لأنه في يوم التغابن إذا دخل أهل الجنةِ الجنة رفعوا أبصارهم فإذا أناس كالنجوم، وهؤلاء هم العلماء، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فالجنة درجات، وصاحب الهمة العالية يجتهد في إدراك الأعلى.

وقد تنازع العلماء في أعمال ثلاثة أيها أفضل -وهي بالإجماع أفضل الأعمال التطوعية كما أفاده ابن تيمية [١]-: العلم، والصلاة، والجهاد، وأصح الأقوال الثلاثة أن أفضلها العلم، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي في قول وأحمد في رواية، وذكر ابن القيم ما يقرب من مائة وخمسين دليلًا في تفضيل العلم في كتابه (مفتاح دار السعادة) [٢]، وبسط الأدلة والآثار ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، وابن رجب في شرح حديث أبي الدرداء [٣]، وذكر الخطيب البغدادي فضائل عظيمة للعلم [٤]، ففضائله لا تُحصى.

ويكفي أن تعلم أن من فضيلته تسمية الوحي علمًا: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] والنبي ﷺ لم يسأل ربه أن يزداد إلا منه، قال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] قال ابن حجر: " **لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، والمراد بالعلم العلم الشرعي** " [٥]، وإن كل عبادة مفتقرةٌ إلى العلم وأما العلم ليس محتاجًا إلى غيره من حيث الأصل.

والأدلة كثيرة في القرآن والسنة في فضل العلم وأكتفي بأثرين:

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦ / ٧٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٣١).

(٣) ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء (ص ٣٤).

(٤) الفقيه والمتفقه (٢ / ١٣٨). " **باب في فضل العلم والعلماء** ".

(٥) فتح الباري لابن حجر (١ / ١٤٢).

الأول: ما ثبت عند الدارمي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: " **معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر** " [١]، فينام معلم الناس الخير ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان.

الثاني: ما روى أبو عثمان الصابوني عن الزهري أنه قال: " **تعليم سُنَّةٍ خيرٌ من عبادة مائتي سنة** " [٢]، وهذا فضل عظيم للغاية.

لذا عظَّمت الشريعة طلاب العلم وأمرت بتقديرهم، ثبت عند الترمذي عن صفوان بن عسال أنه لما أتاه بعض أهل العلم قام بتقديرهم ثم قال: " **إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب** " [٣]، وأصح الأقوال الثلاثة أن الأمر على ظاهره وأن الملائكة تضع أجنحتها حقيقة وهو اختيار ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) [٤]، ومن حمله على حديث: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**» [٥] كما اختاره ابن رجب[٦]، ففيه نظر؛ لأنه بيَّن أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم لا لحِلق العلم، وفي حال تعلم العلم سواء

---

(١) مسند الدارمي (١ / ٣٦٣) رقم: (٣٥٥).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ٣١٨).

(٣) الترمذي (٥ / ٥٠٥) رقم: (٣٥٣٥).

(٤) مفتاح دار السعادة (١ / ١٧١ – ١٧٣).

(٥) مسلم (٨ / ٧١) رقم: (٢٦٩٩).

(٦) «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء» (ص٢٦ – ٢٧).

لطلبة العلم أو غيرهم، وأما ما جاء عن صفوان بن عسال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعلَّق الأمر على طالب العلم حتى لو لم يتلبس بطلب العلم في هذا الوقت، والملائكة عالم غيب لا نعلم كنه الأمر، لكنها تضع أجنحتها كما أخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا لا يُقال بالرأي.

وليست صعوبة العلم في إدراك أفراده ومسائله، بل في الجدّ والاستمرار والانشغال به، فكثير من الناس درس العلوم الدنيوية كالرياضيات بمعاركها، والفيزياء والكيمياء بدقائقها، فإذا جاء العلم الشرعي ضعف، مع أنه أسهل بكثير كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] قد يكون الرجل مهندسًا متميزًا ثم يطلب العلم فتراه ضعيفًا، والسبب أنه أيام دراسة الهندسة كان جادًّا بخلاف العلم الشرعي.

ولابد في ابتداء طلب العلم الشرعي من العكوف على أهل العلم ليعطوا مفاتيح العلم، وهذه المفاتيح مهمة وأساس[1]، لكنها قد تُمثِّل في العلم عشره أو ثمنه والباقي بالاجتهاد الفردي، وبعض الناس جهده الكبير في ملازمة الدروس فحسب، وهذا غلط؛ والدروس مفيدة لكن لا تعطي من العلم إلا عشره أو أكثر أو أقل، وهي الأساس العظيم، والاجتهاد والتمايز والتغاير والتباين على الجهد

(١) قال الشاطبي في «الموافقات» (١/ ١٤٠): «وَقَدْ قَالُوا: "إِنَّ الْعِلْمَ كَانَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ".» وقال (١/ ١٤٧): «أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِنْ فَهْمِ مَقَاصِدِ ذَلِكَ الْعِلْمِ الْمَطْلُوبِ، وَمَعْرِفَةِ اصْطِلَاحَاتِ أَهْلِهِ؛ مَا يَتِمُّ لَهُ بِهِ النَّظَرُ فِي الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول، ومن مُشَافَهَةِ الْعُلَمَاءِ، أَوْ مِمَّا هُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: "كَانَ الْعِلْمُ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَمَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ"، وَالْكُتُبُ وَحْدَهَا لَا تُفِيدُ الطَّالِبَ مِنْهَا شَيْئًا، دُونَ فَتْحِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مُعْتَادٌ».

الفردي بالبحث والنظر والقراءة والمطالعة والمباحثة والمذاكرة والمناقشة، وغير ذلك، أما أن يقتصر بعض طلاب العلم على حضور الدروس فهذا خطأ.

وبعضهم يحضر الدرس فحسب ولا يُحضّر قبل الدرس، ولا يراجع بعد، ولا يكرر المراجعة، والعلم هو الضبط، والضبط بكثرة التكرار، ذكر ابن حجر في (هدى الساري)[١] أن بعضهم تعجب من قوة حفظ البخاري فظنوا أنه يأكل شيئًا، فتتبعوه فقال: لا شيء إلا إدامة النظر -أي كثرة التَّكرار.

فاجعل لك وردًا في المراجعة سواء في المحفوظات أو المدروسات، ووردًا تحفظ فيه أشياء جديدة كما تحفظ القرآن، ككتاب التوحيد والواسطية وبلوغ المرام، وهكذا، وكذلك المفهومات من الدروس التي تحضرها من شروح كتاب التوحيد وشروح أصول الفقه والفقه، والذي يفعل ذلك مع الأيام يكون أميز بكثير ممن لا يراجع ولو كان الذي لا يراجع متفرغًا للعلم والذي يراجع مشغول فإنه يكون أكثر ضبطًا، لذا عظَّم ابن عبد البر كلمة مروية عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهي قوله: **" قيمة كل امرئ ما يحسن "** [٢].

فلو حفظت القرآن ونسيته ولم يبق معك إلا جزءان فأنت تحفظ جزئين، فقيمة كل امرئ ما يحسنه، فأكثروا من المراجعة، وهي ثقيلة لكنها المفيدة، نسأل الله أن يمن علينا بالعلم النافع والعمل الصالح.

---

(١) هدي الساري» (ص٤٨٧ ط السلفية).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٤١٦) رقم: (٦٠٨)، والفقيه والمتفقه (٢ / ١٥٠).

وبعض أهل العلم لما تكلم على المفاضلة بين العبادات قال: لا تُفضَّل عبادة على عبادة وإنما يختلف باختلاف الزمان والأشخاص، وقد ذكر هذا ابن تيمية في (الوصية الصغرى) [١] وابن القيم في (مدارج السالكين) [٢] لكن فيه نظر؛ وذلك أن البحث جارٍ فيما إذا استويا جميعًا من كل وجه ولم يكن مرجح خارجي، أما تقديم الاشتغال بالترديد خلف المؤذن على العلم فهذا يقدم لأمر عارض وهو أنه مؤقت وعبادة تفوت.

قوله: (**فإن نجا منها بفقهٍ في الأعمال ومراتبها عند الله تعالى، ومنازِلِها في الفضل، ومعرفةِ مقاديرها، والتَّمييزِ بين عاليها وسافِلِها، ومفضولِها وفاضِلِها، ورئيسِها ومرؤوسها، وسيِّدِها ومسودها؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروةً وما دونها، كما في الحديث الصّحيح: "سيِّد الاستغفار أن يقول العبد: اللهمَّ أنتَ ربِّي" الحديث ...**) يشير إلى ما روى البخاري من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٣]، وهو أن أعظم الاستغفار هو هذا الاستغفار، فكذلك الأعمال فيها سيد ومسود، فيشتغل العبد بالأعلى والأفضل.

وهذه شبهة أضعفت العلم عند طائفة وكنت أظنها انتهت وبين طلاب العلم انجلت، فقد وقفت بنفسي على أقوام منهم من يشتغل بإغاثة الناس ومساعدتهم -وهذا خير-، وترك الجد في العلم مع أنه قد فُتح له الباب بحجة نفع الناس، وقسم أشغله الشيطان بالعبادة وترك العلم، فالشيطان لم يفتح له باب العبادة نصحًا له

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٦٠).

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٣٦).

(٣) البخاري (٨ / ٦٧) رقم: (٦٣٠٦).

وإنما أراد أن يُشغله بالمفضول عن الفاضل، وهذا باب عجيب يتفاوت فيه الناس، والعاقل يستشعر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (التدمرية) (١) وابن القيم بأوضح في (مدارج السالكين) (٢) وأن أعلاها من جمع بين العبادة والاستعانة، فعليك بأهم العبادات وأفضلها والاستعانة بالله سبحانه.

قوله: (وفي الحديث الآخر: "الجهادُ ذِروةُ سَنامِ الأمر"، وفي أثرٍ آخر: أنّ الأعمال تفاخرت، فذكر كلُّ عملٍ منها مرتبته وفضله، وكان للصَّدَقة مزيّةٌ في الفخر عليهنّ) للصدقة مزيَّة لأنها عملٌ متعدٍّ.

تنبيه: إن من الخير أن يحرص العامة والخاصة على إطعام المحتاجين والفقراء والأيتام وعلى القيام بهم، وهذه عبادة عظيمة، لكن الأنفع من ذلك كفالة طلاب العلم حتى ينشروا العلم، وذلك أنهم حراس الشريعة وجنودها وحماتها، فإذا لم يكفلوا دنيويًّا فكيف يتيسر لهم التفرغ لطلب العلم؟ فالعلم تحصيل معلومات في زمن ووقت، فإذا لم يفرغوا لم يتيسر لهم تحصيل العلم، وفي الأزمان الماضية كانت هناك أوقاف كثيرة لطلاب العلم، فتفرغوا لأجل التعلم والتعليم، وفي هذه الأزمان قلَّت.

---

(١) التدمرية (ص ٢٣١ – ٢٣٢).

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٢١).

فليحرص ذو اليسار وكل أحد مستطيع أن يكفل طالب علم، فطالب العلم يحتاج أن يتزوج ويعول أسرته، وفي بعض الدول يكفيه مبلغ قليل، وكلما كان الطالب جادًّا وكفله ذو يسر فهو غنيمة وربح من الله لهذا الكافل.

فلابد لكثير من أصحاب النفقات والصدقات أن يعيدوا النظر في صدقاتهم، وليضعوا صدقاتهم في الأفضل وهو كفالة وإعانة خلفاء الرسل وورثة الأنبياء في حماية الشريعة وتعليمها ونشرها، وهذا أفضل من أن تطعم عائلة من العوام، وقد يكون هؤلاء العوام فساقًا، وقد يستعينون بمالك على المعصية، أما طالب العلم فيستعين بالمال على الطاعة.

قوله: (**فإذا نجا منها لم يبق هناك عقَبَةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوى واحدةٍ لا بدَّ له منها، ولو نجا منها أحدٌ لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلق عليه. وهي عقَبةُ تسليطِ جندِه عليه بأنواع الأذى باليد واللِّسان والقلب على حسب مرتبته في الخير** ...) وهذه العقبة السابعة.

وجنده إما من شياطين الإنس أو شياطين الجن، وشياطين الجن بالسحر والعين والأمراض الروحية وغير ذلك، وشياطين الإنس بالأذى الحسي إما بالقول أو بالضرب وتارة يُسلطون عليه الحكام وهكذا...

وقوله: (**على حسب مرتبته في الخير**) فيزداد التسليط والبلاء على حسب مرتبته، وهذا أمر عظيم، ثبت عند أحمد وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين، ابتلي على**

حسب ذاك، وإن كان صُلْب الدين، ابتلي على حسب ذاك، قال: فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة» [١].

فكلما كان الدرجة أعظم سلط الله عليه أشد وابتُلي أكثر حتى يُنقَّى، وقد نقل ابن تيمية [٢] وابن القيم [٣] عن الشافعي أنه قيل له: **"يا أبا عبد الله! أيما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يُبتلَى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يُبتلَى "**، فهذه سنة الله الكونية، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال بعدها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فهذا البلاء لا يمنعك من البيان، لكن بالحكمة وبالتي هي أحسن.

لأن هناك خِذلانًا ومخالفة، والخِذلان من أصحاب الرجل، فيقولون في مواطن اجتهاد: تعجلت، لم تراع المصلحة، بالغت، لو قلت كذا، لو تركت، تسرَّعت، وقد يكون مصيبًا وقد يكون مخطئًا، ولو كان مصيبًا فليس هذا وقته فيما هو من هذا النوع الاجتهادي.

---

(١) مسند أحمد (٣ / ٨٧) رقم: (١٤٩٤).

(٢) جامع المسائل لابن تيمية (٣ / ٢٥٤).

(٣) زاد المعاد (٣ / ١٧).

وبعض هؤلاء قد يكون صاحبك لكن يحسدك على ما فُتح عليك من الخير، وقد يكون صادقًا وناصحًا، ثم هذا الناصح والصادق قد يكون مصيبًا وقد يكون مخطئًا، فالدنيا بلاء وتحتاج إلى نظر وتأمل واستعانة بالله.

أما المخالفة فهي من الأعداء ولا يستغرب منهم الأذى، وهذا هو الأصل فيهم، فالأمر عظيم ويحتاج إلى إقبال على الله فهو وحده المعين والمسدد.

فالبلاء لابد منه، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ [الملك: ٢] وكلما عظم الدين كان البلاء أكثر وأشد، وذكر ابن مفلح أن ابن تيمية كان كثيرًا ما يتمثَّل هذا البيت [١]:

طُبِعَت على كدرٍ وأنتَ تريدها ... صَفوًا من الأقـذارِ والأكـدارِ

ومُكلِّفُ الأيـامِ ضِدَّ طِبَاعِـها ... مُتَطَلِّـبٌ في الـماءِ جَـذْوَةَ نارِ

وقد وقع ابن تيمية في بلاء عظيم، لكن من رحمة الله على أهل الخير أنهم في الظاهر مبتلون إلا أنهم في الحقيقة في جنة أذاقهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة، فهم في أنس وسعة وراحة بال ليست عند غيرهم، وأعداؤهم وخصومهم في الظاهر في خير وفي جنة وهم والله في نكد لا يعلمه إلا الله، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] هذا كلام الله سبحانه وهو حق، فحتى لو لم تره بعينك كيف وقد رأينا في هذه الحياة أشياء عجيبة، فقد يأكل كسرة خبز ويتلذذ بها ويجد أنسًا وانشراح صدر، وذاك يأكل من أحسن ملذات الدنيا ولا يتلذذ بها، وقد يسكن غرفةً لا أثاث فيها ويجد من الأنس وانشراح الصدر والراحة والفرح بالله وبدينه

---

(١) «الفروع وتصحيح الفروع» (٣/ ٣٩٩): مؤسسة الرسالة

وبما منَّ الله عليه، وذاك يسكن القصور الشاهقة وهو في حسرة وهم وغم لا يعلمه إلا الله سبحانه.

والواقع خير شاهد، قلِّب بصرك في أهل العلم الذين عاصرناهم كالشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أُصيب ببلاء وأشياء عجائب، ولا تراه إلا في أنس وانشراح صدر، ومثله الشيخ ابن عثيمين، فقد كُفِّر وأُلقيت كلمات في المساجد في تكفيره، وما زاده الله إلا رفعة، والألباني مرَّ من البلاء ما الله به عليم، من حكومته ومن الناس ومن أهل البدع ومُنع من الدروس، وهو من أشد الناس أنسًا وأخرج من التراث العلمي، وطرح الله البركة في اللقاءات التي سجلها.

يقول ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية: **"وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً.**

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوْحِها ونسيمها وطِيبها ما استفرغ قُواهم لطلبها، والمسابقة إليها " [1].

قوله: (فكلَّما علَتْ مرتبتُه أجلَبَ عليه بخيله ورَجْله، وظاهَرَ عليه بجنده، وسلَّطَ عليه حزبَه وأهلَه بأنواع التَّسليط) لاحظ قوله: (وأهلَه) فقد تُسلَّطُ عليك زوجتك أو أبوك وأمك أو إخوتك أو أولادك، ومن باب أولى أن يسلط عليك

(١) الوابل الصيب (ص ١١٠).

جارك وأصحابك وأقاربك، كما تسلط على رسول الله ﷺ بعض أعمامه وقومه وعشيرته، وهكذا الدنيا بلاء، وقد يأتي البلاء من القريب.

وظُلمُ ذوي القُرْبى أشَدُّ مَضَاضَةً ... على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنّدِ (١)

قوله: (**وهذه العقَبةُ لا حيلة له في التّخلُّص منها، فإنّه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدَّعوة إلى الله تعالى والقيام بأمره، جدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبِس لَأْمةَ الحرب، وأخذ في محاربة العدوِّ لله وبالله. فعبوديّتُه فيها عبوديّةُ خواصِّ العارفين، وهي تسمّى "عبوديّة المراغمة"، ولا ينتبه لها إلّا أولو البصائر التّامَّة. ولا شيءَ أحبُّ إلى الله من مراغمةِ وليِّه لعدوِّه وإغاظتِه له**).

أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يعيننا وإياكم على تجاوز العقبات كلها، وأن يجعلنا وإياكم من أنصاره وأوليائه، إنه أرحم الراحمين.

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص ٢٧).

فهرس المراجع والمصادر:

١. **الإبانة الكبرى لابن بطة**، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٢. **الإحكام في أصول الأحكام – لابن حزم**، دار الآفاق الجديدة.

٣. **أعلام الموقعين**، دار عطاءات العلم – ط٢.

٤. **الإيمان الأوسط**، لابن تيمية، دار ابن الجوزي – ١٤٢٣هـ.

٥. **البداية والنهاية**، دار هجر – ط١.

٦. **بدائع الفوائد**، دار عطاءات العلم – ط٥.

٧. **التدمرية**، مكتبة العبيكان – ط٦.

٨. **تفسير الطبري**، دار هجر – ط١.

٩. **تلبيس إبليس**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – ت: علي السحيباني.

١٠. **التمهيد لابن عبد البر**، وزارة الأوقاف المغربية.

١١. **تهذيب اللغة**، للأزهري، دار إحياء التراث العربي – ط١.

١٢. **جامع المسائل لابن تيمية**، دار عطاءات العلم – ط٢.

١٣. **ديوان طرفة بن العبد**، دار الكتب العلمية – ط٣.

١٤. **روضة الناظر وجنة المناظر**، مؤسسة الريان – ط٢.

١٥. **زاد المعاد**، دار عطاءات العلم – ط٣.

١٦. **سنن ابن ماجه**، دار الصديق – ت: عصام موسى هادي.

١٧. **سنن أبي داود**، دار الرسالة العالمية – ط١، ت: شعيب الأرنؤوط.

١٨. **سنن الترمذي**، دار الغرب الإسلامي – ط١، ت: بشار عواد.

١٩. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي**، دار طيبة – ط٨.
٢٠. **شرح العقيدة الأصفهانية**، لابن تيمية، المكتبة العصرية – ط١.
٢١. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، مكتبة الرشد – ط٢.
٢٢. **الشريعة للآجري**، تحقيق: د. عبد الله الدميجي، دار الوطن – ط٢.
٢٣. **شعب الإيمان للبيهقي**، مكتبة الرشد – ط١.
٢٤. **صحيح البخاري**، الطبعة السلطانية.
٢٥. **صحيح مسلم**، الطبعة التركية.
٢٦. **صيد الخاطر**، دار القلم – ط١.
٢٧. **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**، دار العاصمة – ط١، ت: الجديع.
٢٨. **فتح الباري لابن حجر**، المكتبة السلفية – مصر.
٢٩. **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، مكتبة دار البيان – دمشق.
٣٠. **الفقيه والمتفقه**، للخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي – ط٢.
٣١. **لوامع الأنوار البهية**، مؤسسة الخافقين – ط٢.
٣٢. **متن العقيدة الواسطية**، أضواء السلف – ط٢.
٣٣. **مجموع الفتاوى لابن تيمية**، مطبعة الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٣٤. **مختصر الصواعق المرسلة**، للموصلي، دار الحديث – ط١.
٣٥. **مدارج السالكين**، دار عطاءات العلم – ط٣.
٣٦. **المراسيل لابن أبي حاتم**، مؤسسة الرسالة – ط١.
٣٧. **المستصفى للغزالي**، دار الكتب العلمية – ط١.
٣٨. **مسند أحمد بن حنبل**، مؤسسة الرسالة – ط١.

٣٩. **مسند الدارمي**، دار المغني – ط١.

٤٠. **المغني لابن قدامة**، دار عالم الكتب.

٤١. **مفتاح دار السعادة**، دار عطاءات العلم – ط٣.

٤٢. **منهاج السنة النبوية**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – ط١.

٤٣. **الموافقات للشاطبي**، دار ابن عفان – ط١.

٤٤. **الوابل الصيب**، دار عطاءات العلم – ط٥.

٤٥. **ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء**، دار الفاروق الحديثة – ط٢.